الدرجات

التي اختصم فيهن الملأ الأعلى

خطبة ألقاها

الشيخ أ.د. سليمان بن سليم الله الرحيلي

أستاذ كرسي الفتوى بالجامعة الإسلامية والمدرس بالمسجد النبوي الشريف

يوم ٨ ربيع الآخر ١٤٣٨ بالمدينة النبوية

[الخطبة الأولى]

إنّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيّئات أعمالنا، من يهد الله فلا مُضلّ له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران:١٠٢]

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء:١]

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١]

أمّا بعد: فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشرّ الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار، ثم يا عباد الله:

إن الناظر في أحوال الناس في دنياهم يجد أنّ الرجل قد يسمع عن بلدٍ فيه سعة من الرزق، فيسافر إلى ذلك البلد، وينفق الأموال في ذلك، ويتحمّل ما يتحمّل في ذلك السفر، رجاء أن يحصّل ما يريد، وقد يحصّل ما يريد وقد لا يحصّل ما يريد، ويجد أنّ منهم من يسمع عن بلدٍ طاب هواؤه وحَسُنت الخضرة والطبيعة فيه، فينفق الأموال، ويسافر إلى ذلك البلد، ويتحمّل ما يتحمّل، رجاء أن يتمتّع بذلك أيّامًا معدودات.

فكيف -يا عباد الله- بالمؤمن وقد جاءه الوعد الصادق الذي لا يُخلَف، والخبر الصادق الذي لا يَدخلُه الكَذِبُ بوجهٍ من الوجوه، عن دار السلام، عن دار الرحمة والإكرام، عن دارٍ يَرحمُ الله بها من يشاء من عباده، عن دارٍ أعدّها الله ﷻ لعباده الصالحين، وأعدّ لهم فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، عن الجنة يا عباد الله؟ لا شكّ -يا عباد الله- أنه حقيقٌ بالمؤمن أن يسابق ويسارع، وأن يزاحم ويستبق الخيرات.

واعلموا عباد الله -اعلموا عباد الله!- أنّ الجنة التي أعدّها الله ﷻ لعباده الصالحين ليست درجة واحدة، بل درجات كثيرة، وإنّ ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض.

وإنّ من أعلى الدرجات في الجنة -يا عباد الله- درجاتِ أهل الغرف، الذين قال فيهم النبي ﷺ: «إنّ أهل الجنة ليتراءَون أهل الغرف من فوقهم، كما تتراءَون الكوكب الدُرّيّ الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب، لِتَفَاضُلِ ما بينهم»، قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، فقال ﷺ: «بلى والذي نفسي بيده، رجالٌ آمنوا بالله، وصدّقوا المرسلين»، وقال ﷺ: «إنّ أهل الجنة ليتراءَون الغُرف في الجنّة كما تتراءَون الكوكب في السماء».

وإنّ من أهل الغرف -يا عباد الله- أصنافًا يختصم الملأ الأعلى -وهم الملائكة- ويتراجعون الكلام في درجاتهم، لِشَرَفِها وعُلوّها في الجنة، ولِعظيمِ ما فيها من النعيم، كما تقدّم معنا في الخطبة الماضية، أنّ نبيّنا محمّدًا ﷺ نام، فقال الله له: «يا محمد»، قال: «لبّيك ربّي»، قال: «فيمَ يختصم الملأ الأعلى؟» قال: «في الكفّارات»، قال: «ما هُنّ؟» قال: «مشيُ الأقدام إلى الجماعات، والجلوس في المساجد بعد الصلوات، وإسباغ الوضوء في المكروهات»، قال: «ثمّ فيمَ؟» وفي رواية قال: «وما الدرجات؟» قال: «إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة بالليل والناس نيام»، وجاء في رواية: «وإفشاء السلام».

هذه الدرجات العِظام -يا عباد الله- من درجات أصحاب الغرف في الجنة، فعن أبي مالك الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال: «إنّ في الجنة غُرفًا يُرى ظاهرُها من باطِنِها، وباطِنُها من ظاهِرِها، أعدّها الله لمن أطعم الطعام وأفشى السلام، وصلّى بالليل والناس نيام».

وعن علي ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «إنّ في الجنة غُرفًا تُرى ظهورُها من بطونِها، وبطونُها من ظهورِها»، فقام أعرابيّ فقال: لِمَن هي يا رسول الله؟

الله أكبر، ما أعظمه من سؤال!

فقال ﷺ: «لِمَن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلّى بالليل والناس نيام».

إنّ هذه الخصال -يا عباد الله- ينال بها العبد الجنة، بل يُرفع في درجات عظيمة من درجات الجنة، قال النبي ﷺ: «يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلُوا الأرحام، وصَلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام».

الله أكبر يا عباد الله! إنها خصال أربعة يختصم فيها الملأ الأعلى، تختصم فيها الملائكة، تتراجع الملائكة فيها الكلام، لشرفها وفضلها، ولأنّها تبلغ بصاحبها الدرجات العُلى من الجنة.

فحقيقٌ بكَ أيها المؤمن، حقيقٌ بكِ أيتها المؤمنة، أن تسمعي هذه الخصال، وأن تسمع -يا رعاك الله- هذه الخصال، وأن تفهمها، وأن تسعى جاهدًا لأن تكون من أهلها.

أول هذه الخصال: إطعام الطعام.

وإطعام الطعام من أحسن الخصال الذي جاء بها الإسلام، ومن خيرها، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنّ رجلاً سأل النبي ﷺ: أي الإسلام خير؟ فقال ﷺ: «تُطعم الطعام، وتَقرأ السلام على من عرفت وعلى من لم تعرف».

وهو من صفات الأبرار الذين قال الله فيهم: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢﴾ [الإنسان: ٨-١٢].

إطعام الطعام -يا عباد الله- من صفات خيار عباد الله، قال النبي ﷺ: «خياركم من أطعم الطعام».

وهو من أعظم أسباب دخول الجنة، قال النبي ﷺ: «أطعموا الطعام، وأفشوا السلام، تُورَثوا الجِنان».

وإطعام الطعام -يا عباد الله- من عادة السّلف الكِرام، وقد كان المؤمنون إلى زمنٍ قريبٍ يَحرِصون على هذه الخَصلة حِرصًا عظيمًا.

وإنّ أهل المدينة كانوا يتمسّكون بهذه الخصلة، وهذه العادة الطيبة، فكان الجيران يُطعِم بعضُهم بعضًا، ولا يلذّ لهم طَعمُ الطّعام إلا إذا أرسلوا إلى جيرانهم.

وإنّ هذه الخصلة -يا عباد الله- تكاد أن تَنْقَرِض فيما بيننا اليوم، في هذا الزمن الذي عظمت فيه القطيعة، وقلّ فيه الوصل، والله المستعان.

فما أجملَ -يا عبد الله- أن تُحيي هذه الخصلة، وأن تُطعِم الطّعام، وأن تَحُثّ أهلك على إرسال الطعام إلى جيرانك، ولو إلى أقرب الجيران.

ما أجملَ -يا عبد الله- مِن أن تحرص على أنّك إذا اشتريت شيئًا اشتريت معك لجيرانك، ووضعت ذلك عند أبوابهم، إنّه ولله من أعظم ما تفعله، وتتقرّب به إلى الله ﷻ.

وإنك -يا عبد الله- إذا فعلت هذا في زماننا، نِلت أجرين:

- أجر إحياء هذه الخصلة،
- وأجر العمل بها.

واعلم -رعاك الله- أنه كلّما زادت الحاجة كلّما كان الإطعام أعظمَ ثوابًا.

فالله الله عباد الله في هذا الخصلة الكريمة.

والخصلة الثانية: لين الكلام.

الأصل في المؤمن، الأصل فيك -يا عبد الله- حسن الأخلاق، أن تكون هيّنا، أن تكون ليّنا، أن تكون قريبًا من الناس، وقد قال النبي ﷺ: «إنما يُحَرَّم على النار» -إنما يُحَرَّم على النار- «كلّ هيّن ليّن قريب سهل».

وقد أمرنا الله ﷻ بحسن القول، فقال سبحانه: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وبيّن لنا أنّ من صفات عباده الأخيار: القول السّالم من الأذى، حتى مع الجاهلين، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وأما الخصلة الثالثة: فالصلاة بالليل والناس نيام.

قيام الليل -يا عباد الله- عبادة شريفة افترضها الله ﷻ في أول سورة المزمّل، فقام نبيُّ الله ﷺ وأصحابُه حولاً كاملاً، وأمسك الله خاتمة سورة المزمّل اثني عشر شهرًا في السماء، حتى أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف، فصار قيام الليل تطوّعًا بعد الفريضة.

وهو -يا عباد الله- خير صلاة العبد بعد الفريضة، قال النبي ﷺ: «أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل».

وقالت أمّنا عائشة ﵂ توصينا، توصينا معاشر المسلمين: عليكم بقيام الليل، فإنّ رسول الله ﷺ كان لا يَدَعُه، فإنْ مَرِضَ قرأ وهو قاعد، وقد عَرَفْتُ أنّ أحدَكم يقول: بِحَسْبِي أن أُقيمَ ما كُتِب لي، وأنَّى له ذلك؟!

وقيام الليل -يا عباد الله- شأن الصالحين من الأمم السابقة ونعيم الصالحين من أمّة محمد ﷺ، وكلُّه لك خيرٌ يا عبد الله، قال رسول الله ﷺ: «عليكم بقيام الليل» -عليكم بقيام الليل!- «فإنه دأبُ الصالحين قبلكم، وهو قربةٌ لكم إلى ربّكم، ومَكْفَرةٌ للسّيّئات، ومَنْهاةٌ عن الإثم».

ولِعِظَم شأن قيام الليل -يا عباد الله- يسعى الشيطان إلى تثبيط الإنسان عنه، كما أخبرنا النبي ﷺ عن ذلك، فقال: «يعقِد الشيطان على قافية رأس أحدكم ثلاثَ عُقد إذا نام» - يريد ألا يجعله يستيقظ ليصلّي من الليل- «بكُلِّ عقدة يَضرِبُ عليك ليلاً طويلاً، فإذا استيقظ فذكر الله انحلّت عقدة، وإذا توضّا انحلّت عنه عقدتان، فإذا صلّى انحلّت العقد، فأصبح نشيطًا طيّب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان».

وهذا الحديث -يا عباد الله- يدُلّنا على أنّ قيام الليل له أثره في طِيب نفس الإنسان في يومه، والعكس بالعكس.

وإنّ من الخصال التي لا ينبغي للمؤمن أن يتحلّى بها يا عباد الله: أن يقوم الليل زمنًا ثمّ يتركه من غير عذر، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عبد الله، لا تكُن مثل فلان، كان يقوم الليل فتَرَكَ قيام الليل».

فالله الله أمة محمد ﷺ، عليكم بقيام الليل، من كان يستطيع أن يقوم من آخر الليل فذلك أحسن، ومن كان لا يستطيع فَلْيَقُم شيئًا من الليل بعد أن يصلي العشاء، وأقلُّ قيام الليل أن يُوتِر العبد يا عباد الله.

فالله الله عباد الله في هذه الخصال، فإنها خصالٌ يسيرة، وإنّ ثوابها لعظيمٌ عند ربّنا ﷻ.

أقول ما تسمعون، وأستغفر الله العظيم لي ولكم من كل ذنب، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

[الخطبة الثانية]

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيَّ بعده، أما بعد فيا معاشر المؤمنين:

إنّ الخصلة الرابعة من خصال أهل الدرجات الذين يختصم فيهم الملأ الأعلى، ويتراجع الملائكة في درجاتهم في الجنّة: إفشاء السلام.

أمة محمد ﷺ أمة السّلام، تحيّتهم فيما بينهم السّلام، وتحيّتهم في الجنة مع أهل الجنة السلام.

والسلام -يا عباد الله- سببٌ لنشر المحبّة بين المؤمنين، وسبب عظيم من أسباب دخول الجنة، وقد قال النبي ﷺ: «لا تدخلون الجنّة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا، أفلا أدلّكم على شيء إذا فعلتموه تحابَبْتم؟ أفشوا السّلام بينكم».

وإفشاء السلام -يا عباد الله- سببٌ لسلامة القلب من أمراضه، سبب لسلامة العبد من الكِبْر والغِلّ والحسد، قال النبي ﷺ: «أفشوا السلام تَسلَموا».

قال أهل العلم: معنى هذا الحديث أنّكم -يا عباد الله- إذا أفشيتم السّلام فإنّ الله يُسلّم لكم قلوبكم من الأمراض، لتكون قلوبكم سليمة.

واعلموا -عباد الله- أنّ إفشاء السلام يكون بأنْ يُسلّم العبد على من لقِيَه من المسلمين، فإن النبي ﷺ كان إذا مرّ على النساء سلّم عليهن، وإذا مرّ على صِبية سلّم عليهنّ.

فإذا مرّ العبد على مسلم فإنّه يسلّم عليه، حتى لو مرّ على امرأة، إذا لم تكُن هنالك رِيبة ولا تُهمة فإنه يُشرَع أن يسلّم عليها.

وإفشاء السلام -يا عباد الله- يكون بأن تسلّم على كلّ من لقيته، سواءً كنت تعرفه أو لا تعرفه، وقد سمعنا أن النبي ﷺ سئل: أي الإسلام خير؟ فقال ﷺ: «إطعام الطعام، وأن تقرأ السلام على من عرفت وعلى من لم تعرف».

واعلم -يا عبد الله- أنّ من إفشاء السلام أنك إذا لقيت أخاك -ولو كان العهد قريبًا- تُسلّم عليه مرّة أخرى، فقد قال النبي ﷺ: «إذا لقي أحدكم أخاه فليُسلّم عليه، فإنْ حالَتْ بينهما شجرة أو جدار ثم لقِيَه فليُسلّم عليه مرّة أخرى».

ومن إفشاء السلام -يا عبد الله- أنك إذا دخلت المجلس تُسلّم على أهله، وإذا قُمتَ من المجلس تُسلّم على أهله، فقد قال النبي ﷺ: «ثم إذ قام فليُسلّم، فليست الأولى بأحقَّ من الأخرى».

فهذه -يا عباد الله- خَصلة حميدة من خصال أهل الإسلام، فالله الله عباد الله في إفشاء السلام بينكم.

واعلموا -يا عباد الله- أنّ السلام يَحْصُل بالقول، فإذا أضاف المسلم إلى القول بالسّلام مصافحةَ أخيه المسلم، فذلك خيرٌ لهما، قال النبي ﷺ: «ما من مسلمان يلتقِيان فيتصافحان، إلا غُفر لهما قبل أن يتفرّقا».

وقال ﷺ: «إنّ المؤمن إذا لقي المؤمن فسلّم عليه، وأخذ بيده فصافحه، تحاتّتْ خطاياهما كما يتحاتّ ورق الشجر».

فالله الله عباد الله، أفشوا السلام بينكم لتَشِيعَ المحبّة بين المؤمنين، ولتكونوا من أهل الجنة، لعلّكم تفلحون.

اعملوا بهذه الخصال يا عباد الله، وعلّموها لأهليكم، وعلّموها لأبنائكم وبناتكم، فإنّ في انتشارها سلامةً للأمّة، وخيرًا للأمّة، ومحبّةً بين الأمّة، وإنّها لَمِن أعظم أسباب دخول الجنة.

ثم اعلموا -رحمني الله وإياكم- أنّ الله أمركم بأمرٍ عظيمٍ، بدأ فيه بنفسه، ثمّ ثنّى بملائكته، فقال -عز من قائل-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب:٥٦].

وقال النبي ﷺ: «من صلَّى عليّ صلاةً واحدة صلّى الله عليه بها عشر صلوات، ومُحيَت عنه عشر خطيئات، ورُفع عشر درجات».

فاللهمّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميدٌ مجيدٌ، وسلِّم على محمد وآله وصحبِه تسليمًا كثيرًا.

وارضَ اللهمّ عن الصحابة أجمعين، وارضَ اللهمّ عن الصحابة أجمعين، وارضَ اللهمّ عن الصحابة أجمعين، وارض عنّا معهم بِمنّك وكرمك يا أكرم الأكرمين.

اللهمّ إنّ لك عبادًا تُكرِمُهم بأن ترضى عنهم، اللهمّ فاكتبنا منهم يا رب العالمين، اللهمّ فاكتبنا منهم يا رب العالمين، اللهمّ فاكتبنا منهم يا رب العالمين.

اللهم ارض عنا وعن آبائنا وعن أمّهاتنا وعن زوجاتنا وعن أبنائنا وبناتنا وعن جيراننا وعن المسلمين والمسلمات يا رب العالمين.

إلهنا، إلهنا، إنك ترى مكاننا، وتسمع كلامنا، وتعلم ما في قلوبنا، وتعلم أحوالنا أكثر منّا، اللهمّ فَيا ربنا، إنّا عبادٌ من عبادك، قد اجتمعنا في هذا البيت المبارك، في فريضة من فرائضك، اللهمّ وإنّ لكلٍّ مِنّا سُؤلاً، اللهمّ فأعطِه سُؤله، اللهمّ فأعطِه سُؤله، اللهمّ فأعطه سُؤله، وزِده من فضلك يا رب العالمين.

اللهمّ ما عَلِمْتَنا عليه من خير اللهمّ فثَبِّتنا عليه وزِدنا منه يا رب العالمين، وما عَلِمْتَنا عليه من سوء اللهمّ فكرِّهنا فيه وباعِد بيننا وبينه كما باعدتَ بين المشرق والمغرب.

اللهمّ ارزقنا توبة ترضى بها عنّا، اللهمّ ارزقنا توبة ترضى بها عنّا، اللهمّ ارزقنا توبة ترضى بها عنّا.

اللهمّ أنزِلْ علينا البركة في دُنيانا، وأسعِدنا في أُخرانا، واجعلنا من الفائزين يا رب العالمين.

اللهمّ كما جمعتنا في هذا اليوم المبارك، في هذه الساعة المباركة، في هذا المسجد المبارك، اللهمّ فاجمعنا ووالدينا وأهلنا وإخواننا وأحبابنا في الفردوس الأعلى أجمعين، اللهمّ لا تَحرم منّا أحدًا، اللهمّ لا تَحرم منّا أحدًا، اللهمّ لا تَحرم منّا أحدًا.

إلهنا، إلهنا، إنّا أذْنَبنا وأكْثَرنا، ولكنّ رحمتك أَرْجى عندنا من رحمتنا لأنفسنا وأوسع من كل شيء، اللهمّ فارحمنا أجمعين واغفر لنا أجمعين، اللهمّ فارحمنا أجمعين واغفر لنا أجمعين، اللهم فارحمنا أجمعين واغفر لنا أجمعين.

إلهنا، نسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى ألا تقبض أرواحنا إلا وقد رضيت عنّا، إلهنا لا تقبض أرواحنا إلا وقد رضيت عنا، إلهنا لا تقبض أرواحنا إلا وقد رضيت عنا.

اللهمّ أحْيِنا على خيرٍ وطاعة، وأمِتنا على حُسنِ ختام، وابعثنا على خيرِ حال، واجعلنا من أهل الجنة يا رب العالمين.

ربّنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار.

والله تعالى أعلى وأعلم، وصلّى الله على نبينا وسلم.